يعظكم لعلكم تذكرون

ألفاظ أحلى من الشهد ، وأرق من النسيم ، كلمات تتسلل إلى القلب ، وتنقدح في الفؤاد ، وتسكن في الضمير ، قد يجتهد العالم وقد يبدع الخطيب ، وقد يتأنق الواعظ ، ولكن لا أقوى ولا أجمل ولا أزكى ولا أكمل من الموعظة حينما تكون من الله ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] ، هذه الموعظة نسمعها مراراً وتكراراً لأنها تدور على ألسنة الخطباء ، ويحلو لكثير منهم أن يرددها في خطبه ، ويروى أن أول من استعملها في الخطب وأمر بها عمر بن عبد العزيز – رحمه الله –

إنها آية واحدة ، ولكنها جمعت الدين ، ولخّصت الإسلام ، وأوجزت الشريعة ، وشملت المنهج ، ووضّحت المبدأ ، وشرحت السلوك وبينت الأخلاق ، وحددت المثل ، ورسمت المعالم .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٩٠] .

الموعظة ربانية ، والخطبة قرآنية ، وقد كانت هذه الآية سبباً في إسلام أحد الصحابة ، وتمكن الإيمان في قلبه ، وهو عثمان بن مظعون رضي الله عنه حيث كان بجانب النبي ﷺ حينما نزلت عليه هذه الآية فلما قرأها عليه

تمكنت من ضفاف قلبه واستولت على فؤاده واستقر الإيمان في نفسه ، وزرعت محبة النبي ﷺ في وجدانه ويقول عنها ابن مسعود رضي الله عنه أجمع آية في القرآن .

وقال قتادة : ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ، ويستحسنونه إلا أمر الله به في هذه الآية ، وليس من خلق كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدح فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها .

ويقول السعدي – رحمه الله – ضارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات ، ولم يبق شيء إلا دخل فيها ، فهي قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات .

قال تعالى في الآية التي سبقت هذه الآية : ﴿ .. **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل :٨٩].

بين تعالى أنه أنزل كتابه تبياناً لكل شيء ، فجاءت هذه الآية شرحاً موجزاً لما اشتمل عليه هذا الكتاب ، ولما حواه ذلك التنزيل ، فهو يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.

ولو أردنا أن نعطي هذه الآية حقها من الشرح ، ونصيبها من التفصيل لاحتجنا لا أقول إلى عشرات الخطب ، بل إلى مئات الخطب وآلاف الكلمات ، فالحديث عنها حديثاً وافياً شافياً كافياً هو الحديث

عن الدين كله ، والإسلام جميعه ، بل إن ما خطبناه من الخطب ، وما سوف نخطبه لا يخرج عن فحواها ، ولا يبعد عن معناها ، ولا يجاوز مغزاها .

ولكنه حديث موجز ، وشرح مختصر ، وبيان سريع ، لنستفيد من العظة ، ونقف على العظمة ، ونتأمل البلاغة ، وننظر إلى الفصاحة ، ونرى أسرار البيان ، ودلائل الإعجاز ، أمر تعالى بثلاثة أوامر ، أمرين أساسيين وتكملة ، ونهى عن ثلاثة أشياء ، شيئين أساسيين وتكملة .

بدأت الآية بالجملة الاسمية المؤكدة إعلاناً بشأنها ، وتأكيداً على سموها ، ثم ذكر لفظ الجلالة «الله» ليكون الأمر أقوى أثراً ، وأسرع قبولاً ، وأجدر امتثالاً ، فلم يقل عليكم بالعدل ، أو أمرتم بالعدل ، وإنما صرح بالآمر الناهي ليعرف قدره ، ويمتثل أمره ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ** ﴾ ، فهو أمر وليس إخباراً أو ندباً أو بياناً لمكارم الأخلاق فقط ، بل هو أمر يجب أن يطاع . ﴿ **بِالْعَدْلِ** ﴾ ، فهو روح الحياة ، وقوام الدنيا ، وأساس الدين ، والله تعالى حكم عدل ، والسماوات والأرض قامتا على العدل ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً** ﴾ ، والعدل : هو إعطاء الحق إلى صاحبه ، وهو بمعنى المساواة والإنصاف .

وأعدل العدل عدل الإنسان مع ربه جل وعلا ، بأن يعبده حق عبادته ويوحده ولا يجعل له نداً ، ولا يرتضي له شريكاً ، فهو الخالق الرازق المنعم المتفضل الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي بيده مقاليد السماوات والأرض ، فمن أشرك معه غيره ، فقد خالف مقتضى العدل ، ومال إلى

الظلم والجور والطغيان ، فالإنسان مطالب بالعدل مع نفسه ﴿ **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، ومع ربه ، ومع الخلق ، فالعدل صفة كمال وجمال ، ولا بد أن تقوم حياة المسلم على العدل في كل أفعاله وأحواله وأحكامه وأقواله ، عدل في الأقوال : ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** ﴾ [الانعام : ١٥٢] ، وعدل في الكتابة : ﴿ **وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، وعدل في الأحكام : ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [النساء : ٥٨] ، وعدل مع الأعداء : ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾ [المائدة : ٨] ، وعدل في الصلح بين المسلمين ﴿ .. **فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ** ﴾ [الحجرات : ٩] ، وعدل مع النساء : ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾ [النساء : ٣] ، وعدل مع الأبناء : « اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم » [متفق عليه] .

فالعدل هو الذي يكفل لكل فرد ، ولكل جماعة قاعدة ثابتة للتعامل ، لا تميل مع الهوى ، ولا تتأثر بالود والبغض ، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب ، والقريب والبعيد ، والغني والفقير ، والقوة والضعف ، إنما تمضي قاعدة العدل في طريقها ، وتطبق على كل الناس والأجناس ، وتكيل بمكيال واحد للجميع ، وتزن بميزان عادل للكل ، فكم من دول تدّعي أنها راعية العدل ، ورائدة المساواة ، وهي تكيل بمكيالين ، وتنظر بنظرين ، وتتعامل بأسلوبين ، عدل مع من تحب وتهوى أو تجد متاعها عنده ، وظلم مع من تكره وتبغض ، أو من يخالف هواها ، ويحيد عن رضاها ، أو من قالت له هيت لك ، فقال معاذ الله

إنه ربي أحسن مثواي ، وإن الله تعالى ينصر الدولة العادلة حتى لو كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة حتى ولو كانت مسلمة ، وكم من ولاة يدعون العدل مع شعوبهم ، وهم فجرة ظلمة سفاكون باطشون مصاصو دماء ، يمتصون عرق الناس ، ويبتزون حقوق الضعفة ، ويعملون أسواط الظلم والجور والبغي في عباد الله ، وكم من أناس يدعون العدل في إداراتهم ومؤسساتهم وشركاتهم وطلابهم وزوجاتهم وأبنائهم ، والعدل بريء منهم براءة الذئب من قميص يوسف .

ولكن أين هؤلاء جميعاً من الحكم العدل جل شأنه ، وعظم سلطانه الذي إذا ارتفعت إليه دعوة المظلوم قال : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين ، والذي يقول : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

الله جل وعلا أمر بالعدل ، فويل لمن خالف أمره ، وتنكب هديه وتمرد على شرعه ، ولما أمر تعالى بالعدل ، بين أن هنالك مرتبةً أسمى ودرجة أعلى ، وهي الإحسان ، فالعدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه ، والشرُّ بأقل منه .

ولذلك ذكر الإحسان بعد العدل ، تذكيراً به ، وتنويهاً بشأنه ، فهو يلطف حدة العدل الصارم الجازم أحياناً ، وهو يدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه طلباً للأجر ، وطمعاً في المغفرة ، وإيثاراً لود القلوب ، ورأباً لصدع النفوس ، وشفاءً لغل الصدور ، والإحسان باب

يلجـه من أراد أن يأتي بما فـوق العـدل الواجـد ، وأعظم من الإنصـاف المتحتم ، ليكسب فضلاً ، أو يداوي جرحاً .

ولـذلك يقـول تعـالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ [النحل : ١٢٦] هذا العـدل ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] وهذا الإحسان .

ويقول تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وقـال تعـالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

فالإحسان فوق العدل منزلة ، وأسمى منه خلقاً . والإحسان يختلف معناه باختلاف السياق الذي يرد فيه ، فإن ورد مقترناً بالإيمان والإسلام كان المراد به الإشـارة إلى المراقبـة والتقـوى وحسن الطاعة ، وذلك مثل جوابه ﷺ لجبريل حينما سأله عن الإحسان ، قـال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فـإن لم تكن تراه فإنـه يـراك » .

وإذا ورد الإحسان مطلقاً فالمراد به فعل كل ما هو حسن ، وكل ما هو حسن يرجع إلى القاعدة الأولى ، وهي أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فإذا أحسن المسلم في أمر من الأمور فهو ممتثل لتلك القاعدة ، وهو من المحسنين .

والإحسـان من أفضل منازل العبـوديـة ، لأنـه لب الإيمـان ، وروح

الإسلام ، وكمال الشريعة ، وهو يدخل في سائر الأقوال والأفعال والأحوال ، وأعظم درجات الإحسان هي الإحسان مع الله جل وعلا ، ثم إحسان المرء مع نفسه وأهله وسائر المخلوقين ، حتى يشمل البهائم والعجماوات ، يقول ﷺ : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» [صحيح الجامع : ١٧٩٥] .

وقد ورد في الحديث الصحيح : «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يُطيف ببئرٍ ، قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها فغفر لها» .

[رواه مسلم : ٢٢٤٥]

وكل أصول وفروع المعاشرة وآدابها ، وكل قوانين التعامل ترجع إلى الإحسان ، فهو يشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه ، وعلاقاته بأسرته ، وعلاقاته بالجماعة ، وعلاقاته بالبشرية جميعاً ، بل وعلاقاته بسائر المخلوقات .

والمحسن محبوب من المخلوقين ، ومحبوب من الخالق ، ولذلك كانت مرتبة المحسنين عند الله تعالى عظيمة ، ومرتبتهم كبيرة ، ودرجاتهم عالية ، قال تعالى : ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، أي ليس من جزاء لإنعامي عليكم بالإيمان والتوحيد إلا الجنة ، وبين تعالى أنه مع المحسنين بتوفيقه وحفظه وتأييده ، فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل : ١٢٨] .

وأعلن جل وعلا محبته للمحسنين في أكثر من آية فقال : ﴿ **وَاللَّهُ**

﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران :١٣٤] ، وأخبر تعالى أن رحمته قريبة من المحسنين ، فقال : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : ٥٦] وطمأن المحسنين بأن إحسانهم محفوظ ، وعملهم مشكور ، وفعلهم مبرور ، فقال : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود : ١١٥] ، بل أدخل السرور عليهم ، وأعلن البشارة لهم ، فقال في آيات كثيرة : ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج : ٣٧] .

ثم بين جل وعلا نوعاً من أنواع الإحسان ، وهو إيتاء ذي القربى ، وهو داخل في مضمون الإحسان ، ولكن ذكره الله تعالى تنبيهاً عليه وتذكيراً به ، وإعلاءً لشأنه ، فإن البذل والعطاء والفضل والإحسان يجب أن ينطلق من القريب ، ثم يتسع بعد ذلك ليشمل البعيد ، ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ [الإسراء : ٢٦] .

وقد خص الله تعالى ذا القربى لأن الإحسان إليه مما تكثر الغفلة عنه ، ويتهاون الناس به ، فيهتمون بالبعيد وينسون القريب لاعتبارات كثيرة ، ولقد كان من خلق الجاهلين أنهم يقصدون بوصاياهم وأموالهم أصحابهم من وجوه القوم ، وعليه الناس لاجتلاب المحمدة ، وحسن الذكر ، والتباهي ، فذكر الله العدل والإحسان وبين أن من بين جنس العدل والإحسان ومن أتمه الإحسان إلى ذي القربى تنبيهاً للمؤمنين بأن القريب أحق بالإنصاف من غيره ، وأولى بالإحسان من سواه .

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل : ٩٠] .

إذا نهى الله تعالى عن أمر من الأمور فإنه يجب الانتهاء عنه ، وقد جمع أسباب الشر ، ودواعي الردى ، وأخلاق السوء في هذه الآية ، ناهياً عنها ، ومحذراً منها .

ومن ذلك الفحشاء : وهي اسم جامع لكل عمل أو قول تستفظعه النفوس لفساده ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ .

[الأعراف : ٣٣]

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الانعام : ١٥١] فكل أمر عظم قبحه ، وكبر فساده ، هو من الفواحش ، ومما خص بالفحشاء في الغالب ، فاحشة الاعتداء على العرض ، لأنه فعل فاحش ، فيه تجاوز للحد ، فإذا أطلقت الفاحشة ، فالمقصود بها الزنا والعياذ بالله ، وقد حذر الله تعالى منه ، وبين سوء عاقبته ، فقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

والمنكر : هو كل فعل تنكره الفطرة السليمة ، والنفوس القويمة ، وتنكره الشريعة ، فالشريعة هي شريعة الفطرة والحق ، والخير والجمال والكمال .

وبعد أن ذكر الله تعالى الفحشاء والمنكر ، خص بالذكر نوعاً من أنواع الفحشاء والمنكر ، وهوالبغي ، لأنه مما تنساق النفوس إليه ، وتغفل عن قبحه وعاقبته ، وهو الاعتداء في المعاملة ، إما بغير ذنب ، وإما بوجود ذنب يقابل لعقاب جائر مفرط ، فالبغي هو الظلم والجور ، وتجاوز الحق ،

وتنكب العدل ، وهو يشمل كل اعتداء على الخلق في الدين والدماء والأموال والأعراض .. وغيرها .

وما من مجتمع يمكن أن يقوم على الفحشاء والمنكر والبغي ، وما من مجتمع تشيع فيه الفاحشة ثم يقوم أو يكتب له الفلاح .

وإن الفطرة البشرية تنتفض بعد فترة معينة ضد هذه العوامل الهدامة والمنكرات المقيتة ، مهما بلغت قوتها ، ومهما يستخدم من الوسائل لحمايتها . وانظر إلى الغرب الذي وصل إلى الحضيض ، وغاص في أوحال الفواحش والمنكرات ، بدأ الناس الآن يضجون بذلك ، ويبحثون عن المخرج ، ويفتشون عن النجاة ، ويتطلعون إلى مجتمع شريف عفيف تقي نقي ، بعد أن اكتووا بنار الفواحش ، واصطلوا بجحيم المنكرات ، وفشت فيهم الأمراض الفتاكة ، وشاعت فيهم الأخلاق المقيتة ، وخربت نفوسهم وأظلمت قلوبهم ، وضاقت صدورهم ، وفسدت حياتهم .

إن هذه الآية موعظة صادقة للمؤمنين ، وتذكرة ناصحة للمسلمين ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

ومما في هذه الآية من ضروب البلاغة ما يلي :

أولاً : الإيجاز الذي بلغ حد الإعجاز ، حيث جمعت المعاني الكثيرة تحت الألفاظ القليلة ، وهذا إيجاز بالمعنى ، وفيها إيجاز بالحذف ، في مثل قوله : ﴿ وَيَنْهَى ﴾ ، فلم يقل وإن الله ينهى، وقوله : ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ فلم يقل : إن الله يعظكم.

ثانيـاً : استـعـمـال أداة التـعـريف «أل» في كل الكلمـات : العـدل ، الإحسان ، الفحشاء ، المنكر ، البغي ، إلا الإيتاء لأنه خصصه وعرفه بأنه إيتاء ذي القربى ، وهذا التعريف يدل على العموم والاستغراق ، فلم يقل يأمر بعدل أو إحسان إنما بالعدل كل العدل ، والإحسان كل الإحسان ، وينهى عن الفحشاء كل الفحشاء ، والمنكر كل المنكر ، والبغي كل البغي .

ثالثـاً : استـعـمـال الفـعل المضـارع الذي يدل على التجدد والحدوث والاستمرار ، فلم يقل أَمَرَ أو نَهَى ، بل يأمر ، وينهى ، ويعظ .

رابعـاً : مـا يعـرف في البـلاغـة بالطبـاق ، وهي هنا في قـولـه : يأمـر ، وينهى . وما يعرف بالمقابلة ، وهي هنا بين ثلاثة أوامر ، وثلاثة نواه .

خامساً : الترتيب والتسلسل المنطقي البديع ، فلما أمر بالعدل ، بين أنَّ فوقه مرتبة ودعا إليها ضمناً ، وهي : الإحسان . ولما ذكر الإحسان بين نوعاً من أهم أنواعه يغفل عنه الناس ، وهو الإحسان لذي القربى . ولما نهى عن الفحشاء ، دفع ما قد يتوهمه بعض الناس من أن النهي فقط عن فاحشة الزنا فبين أن النهي يشمل جميع المنكرات . ولما نهى عن المنكر أشار إلى منكر من أعظم المنكرات ، قد يغفل عنه الناس وهو البغي والظلم ، والتجاوز فبدأ الأوامر بالعدل وختمها بالنهي عن

الظلم والطغيان .

سادساً : حسن النسق ، وجمال الترتيب ، وعطف الجمل بعضها على بعض ، والبدء بالأمر بالمحبوبات ، ثم العطف عليه بالنهي عن المكروهات . ولم يتأخر في الكلام ما يجب تقديمه ، ولم يتقدم ما يجب تأخيره . ثم ختم ذلك كله بعبارة مستحسنة وجملة لطيفة ، وخاتمة طريفة ﴿ **يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ ، فاحتوت الآية على ضروب من المحاسن والقضايا ، وأشتات من الأوامر والنواهي والمواعظ والوصايا ، مما لو بث في أسفار عديدة ما كفتها . فسبحان من ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وكلامه وأحكامه ، وتبارك من جعل كلامه هدى وشفاءً ونوراً وفرقاناً وبياناً .

﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

خمس آيات من سورة النساء

لفت انتباهي ، وأثار اهتمامي أثر عظيم ، وكلام بديع للصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وذلك أثناء قراءتي لتفسير سورة النساء ، حيث يذكر المفسرون في أول تفسيرهم لهذه السورة هذا الأثر المروي عن ابن مسعود ، والذي قال فيه : «إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أني لي بها الدنيا وما فيها :

١ – قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠].

٢ – وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨].

٣ – وقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١].

٤ – وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤].

٥ – وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠].

تأمَّلْتُ هذه الآيات التي شغف بها ابن مسعود ، وفرح بها قلبه ، وأُسعد بها لبه ، وأَقْسَم أنها أحب إليه من الدنيا وما فيها ، فوجدت أن ذلك الكلام لم يصدر من فراغ ، ولم يأت بالمصادفة . كيف وهو من الإمام القارئ العلامة المحدث الفقيه ، لقد سبر غور هذه الآيات ، فعرف مكنونها ، واستهواه مضمونها ، إنها آيات تفيض بالرحمة ، وتتدفق بالعطف ، وتبين عن الكرم الرباني ، وتعلن عن الجود الإلهي ، تملؤ الأفئدة رضا ، والأنفس أملاً ، والقلوب رجاءً ؛ عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقَّةٌ تستروح منها نسيم الجنان ، ونور تبصر به مرآة الإيمان ووجه الأمان . لن أطيل عليكم في المقدمة ، ولكني أدعكم مع هذه الآيات العظيمات لتقرؤوها ، وتتدبروها ، وتتأملوها ، مع إشارات موجزة لبعض ما اشتملت عليه :

الآية الأولى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا .. ﴾ [النساء : ٤٠].

فالله تعالى لا يظلم عباده يوم القيامة ، ولا حتى مثقال ذرة ، ولا حبة من خردل ، بل يوفيها ويضاعفها لهم ، إن كانت حسنة كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧].

وقال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ

خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ١٦].

وقال تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٨].

كان السلف يقولون الذرة هي البعوضة ، وقيل هي الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، وقيل غير ذلك ، وكان ذلك أصغر ما يتصورونه ، فجاء العلم الحديث ليثبت أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم ، وهو أصغر بكثير من الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فالهباءة ترى بالعين المجردة ، أما الذرة فلا ترى أبدا حتى بأعظم المجاهر!.

وفي حديث الشفاعة الطويل ، يقول الله تعالى : «ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه من النار» ، وفي لفظ آخر «أدنى أدنى أدنى مثقال ذرّةٍ من إيمان فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً» [رواه الشيخان] ، فسبحانه ما أعظمه وأعدله وأحكمه!! ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

من لطفه وفضله وجوده ، أن يضاعف الحسنات ولا يضاعف السيئات ، يقول تعالى : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام : ١٦٠].

واستمع معي إلى هذا الحديث الرائع الماتع ، لترى الجود الإلهي ، والكرم الرباني يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه : «إن الله عز وجل كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها

الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة أو محاها الله ، ولن يهلك على الله إلا هالك » [رواه مسلم].

وقال ﷺ : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . . » [رواه ابن ماجة].

وجاءه رجل بناقة مخطومة ، فقال يا رسول الله : هذه في سبيل الله فقال ﷺ : « لك بها يوم القيامة سبع مئة ناقة » [رواه مسلم].

بعد هذه الآية مباشرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء : ٤١] . وهي الآية التي بكى عندها الرسول ﷺ حينما كان يقرأ عليه ابن مسعود رضي الله عنه بعض الآيات من سورة النساء .

الآية الثانية :

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء : ٤٨] ، الشرك هو الذنب الأعظم ، والمعصية الكبرى . .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ** ﴾ [المائدة:٧٢]
وقال: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ**

﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج : ٣١].

وأخبر ﷺ أن الشرك أكبر الكبائر ، وأعظم الذنوب .

فمن أشرك بالله تعالى لا يقبل له عمل ، ولا يقام له وزن ، ولا تنفعه طاعة ، ولا تقربه حسنة ؛ فالتوحيد هو السبب الأول لنيل مغفرة المولى ورضوانه ، والفوز بنعيمه وجنانه ، ومن جاء به فقد جاء بأعظم أسباب المغفرة ، من جاء بالتوحيد ، ومعه ملء الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة . فهو تعالى يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ، ومن عُذِّب من الموحدين فإنه لا يُخلّد في النار .

والذي يتأمل القرآن والسنة ، يجد أن هنالك ربطاً جميلاً بين الأمر بالتوحيد وبين طلب المغفرة ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد : ١٩].

وفي حديث سيّد الاستغفار أول كلماته : «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ... » [رواه البخاري].

الآية الثالثة :

قوله تعالى : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ .

إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها نكفر عنكم صغائر الذنوب ، وندخلكم الجنة .

روي عن أبي هريرة وأبي سعيد أنهما قالا : خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال : «والذي نفسي بيده» – ثلاث مرات – ثم أكبَّ ، فأكب كل رجل منا يبكي لا ندري على ماذا حلف عليه ، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشر ، فكان أحب إلينا من حمر النعم ، فقال ﷺ : «ما من عبدٍ يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة ثم قيل له ادخل بسلام» [رواه النسائي].

وقد فسر ﷺ هذه السبع في حديث آخر فقال : «اجتنبوا السبع الموبقات» ، قيل : يا رسول الله ، ما هن ؟ قال : «الشرك بالله ، والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» [أخرجه البخاري]

والكبائر غير هذه السبع كثيرة جداً ، وقد بينت ذلك النصوص الأخرى .

قال ﷺ : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلى يا رسول الله ، قال : «الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين» ، وكان متكئاً فجلس ، قال: «ألا وشهادة الزور ألا وقول الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت [متفق عليه].

وقد تعددت آراء العلماء في تعديد الكبائر ، فابن عباس سئل : ما السبع الكبائر ، فقال : هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع .

وقال في رواية أخرى : الكبائر كل ما وعد الله عليه النار .

وقيل : الكبائر هي كل معصية موجبة للحد .

فمن أعرض عن الكبائر ، وحفظ نفسه منها ، فقد ضمن الله له غفران زلاته وتكفير سيئاته .

يقول ﷺ : «الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» [رواه مسلم].

الآية الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً** ﴾ [النساء : ٦٤].

الآية الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ [النساء : ١١٠].

تتجلَّى في هاتين الآيتين سعة رحمة الله تعالى ، وجميل عفوه ، وعظيم مغفرته ، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ **ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال .

فالمؤمن من سماته أنه إذا وقع في الذنب ، سرعان ما يتذكر ويندم

ويخاف .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ .. ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

وقد أمر الله تعالى بالاستغفار في آيات كثيرة من كتابه ، ولقد كان ﷺ وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، يقول : « إني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة » [رواه أحمد] .

وقال ﷺ : « قال الله تعالى : يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا بن آدم لو بَلَغَتْ ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » [رواه الترمذي] .

وقد علّمنا رسول الله ﷺ أحاديث عظيمة ، فأين نحن منها ، وأين أبناؤنا وبناتنا منها؟! هل علمناهم إياها ، وعرفناهم معناها؟ ، بدلاً من الكم الزائد ، والحشد الهائل من المحفوظات المتدنية ، والنصوص الفارغة .

من قال : « أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف » [رواه أبو داود] .

وأين نحن من سيد الاستغفار ، قال ﷺ : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك

بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قاله في النهار موقناً به ، فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قاله من الليل وهو موقن به فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة » [أخرجه البخاري].

obeikandl.com

obeikandl.com

الصـــــلاة

يقبل علينا رمضان الركن الرابع من أركان الإسلام فنسرّ به كثيراً ، ونتحدث عنه كثيراً ، ونبين فضائله ، ونفصل مسائله . ويكون للزكاة ركن الدين الثالث نصيب من الحديث ، وجزءٌ من التذكير ، ثم يدلُف علينا الحج – ركن الإسلام الخامس – فنرى الاهتمام به أعظم ، والحديث عنه أشمل ، والتفصيل في مسائله أكثر ، والسؤال والجواب أعمق ، وتحظى الشهادتان – ركن الإسلام الأول – بنصيب وافر من الحديث ، وحظ مبارك من البيان في ثنايا الحديث عن الحج ، وذلك كله أمر محمود واهتمام مشكور ، وجهد مأجور .

ولكن هنالك ركن مظلوم بين الأركان ، ولم يأخذ حظه الأوفى من النصح والبيان ، مع أنه ركن ركين ، وأصل مكين ، وحبل متين ، بل هو عماد الدين ، وقرة عين خاتم المرسلين ؛ إنه إقام الصلاة لرب العالمين .

وقد أحببت أن أنصف هذا المظلوم بالتذكير ببعض فضائله ، والتصريح على جزءٍ من مسائله ، والتنبيه على مكانه ، والتنويه بأهميته والغوص في دقائقه ، والوقوف على بعض حقائقه . فإن بعض الناس يُتعب نفسه ، ويُهلك ماله ، ويفارق عياله لأداء الحج ، وهو مضيع

للصلاة ، هاجر للمسجد ، مفارق للجماعة ، ويظن أن فعله قويم ، وعمله عظيم . ومن العجب أن ترى أناساً في الحج يسألون عن كل صغيرة وكبيرة ، ويتأكدون من كل مسأله – وهذا أمر محمود وخلق طيب – ولكنك تجده منذ خمسين عاماً أو أكثر أو أقل لم يصلِ صلاة واحدة ، بل قد لا يفهم الفاتحه ، ولم يحاول إقامة صلاته . ولا إتقان قراءته ، ولا السؤال عن شيء في صلاته ، فتعالوا بنا في جولة خفيفة ، وتعريجةٍ لطيفه ، ننطلق فيها بقلوبنا وعقولنا ومشاعرنا وأفئدتنا مع قرة العين ، وعماد الدين ، وسمة المرسلين ، وسلوة الموحدين ؛ مع إقامة الصلاة لرب العالمين .

الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام ، ولم يفترض جلّ وعلا بعد توحيده والتصديق برسله وما جاء من عنده فريضة أولى من الصلاة ، قال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » .

[أخرجه البخاري]

وذلك أمره للأنبياء قبل مبعث النبي ﷺ ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ .

[البينة : ٤]

أول ما افترض الله على موسى بعد أن قربه نجياً ، وكلمه تكليماً ،

أول ما افترض عليه بعد عبادته وتوحيده إقام الصلاة ، قال سبحانه : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ .

[طه : ١٤]

وهذا عيسى عليه السلام حين تكلم في المهد صبيا قال : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٣١].

ولما ذهب أبو الأنبياء عليه السلام بإسماعيل وأمّه فأسكنهما بواد غير ذي زرع دعا ربه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم:٣٧] فدل ذلك على أنه لا عمل أفضل من الصلاة ولا يوازيها.

وقد امتدح الله تعالى إسماعيل عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ .

[مريم : ٥٤]

وذلك زكريا عليه السلام : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ .

[آل عمران : ٣٩]

وقال تعالى لمريم : ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ .

[آل عمران : ٤٣]

وداود عليه السلام لما أصاب الخطيئة وأراد التوبة لم يجد لتوبته مفزعاً إلا إلى الصلاة ، ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص : ٢٤].

وقد قال ﷺ : «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه» [أخرجه البخاري ومسلم].

وذاك سليمان عليه السلام حينما شغلته الخيل عن صلاة العصر حتى تأخر وقتها تأسف وندم ، فعاقب نفسه بأن حرمها الخيل ، فضرب سوقها وأعناقها ، فعوضه الله عن الخيل بالريح ﴿ **تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ** ﴾ .

[ص : ٣٦]

وقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ﴾ .

[طه : ١٣٢]

وذلك كان ديدن الأنبياء جميعاً ، كان مفزعهم إلى الصلاة ، وملجؤهم إلى الانطراح والسجود لعظمة الله يعبدونه ويتقربون إليه ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾ .

[مريم : ٥٩]

الصلاة هي الكتاب الموقوت ، هي التواضع لكبرياء الله ، والخشوع لعظمته ، والخضوع لربوبيته ، هي غذاء القلب ، ومناجاة الرب ، وعماد الدين ، والفارق بين الكفار والمسلمين «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» [أخرجه الترمذي وابن ماجة] فهي شرط المناجاة ، وحارسة الإيمان ، ونور المؤمن ، والنجاة من النار . مناجاة لذي الجلال ، وانطلاقة لقبول الأعمال ، يقول النبي ﷺ «أول ما يحاسب به العبدُ يوم القيامة

الصلاة ، فإن صلحت صلح له سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله» [صحيح الجامع] ، وهي أعظم الأحوال وأفضل الأعمال ، قال ﷺ : «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» [أخرجه ابن ماجة] ، ومن صلحت صلاته فقد أفلح ونجح ، ومن فسدت صلاته فقد خاب وخسر ، وإن حج واعتمر .

الصلاة فريضةٌ دائمة على العبد والحر ، والغني والفقير ، والصحيح والمريض ، والمقيم والمسافر ، أمر بها في ساحة الحرب ، وميادين القتال ، لا تسقط عن نبي مرسل ، ولا عن صالح عارف . دعاءٌ وثناء ، توسل ورجاء تذلل وبكاء ، التجاء واعتصام ، انطراح على عتبة القوي ، وافتقار أمام الغني ، وانكسار أمام الجواد الكريم ، والرؤوف الرحيم . الصلاة عبودية وتذلل ، وتقرب وتحبب ، اتصال الفقير بالغني ، والضعيف بالقوي ، والمحكوم بالحاكم ، والعابد بالمعبود ، والأرض بالسماء ، فهي كلام مع الواحد ، ومناجاة للخالق، «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي شطرين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل . .» [أخرجه ابن ماجة].

الصلاةُ مزيلةٌ الذنوب ، وغاسلة الخطايا ، قال ﷺ : «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟» ، قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : «فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا» [متفق عليه] . واقترف رجل ذنباً فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود : ١١٤] ، فقال الرجل : ألي هذا؟

قال : «لجميع أمتي كلهم» .

ويقول ﷺ : «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن مالم تُغْشَ الكبائر» [أخرجه مسلم].

بل قد يصل المرء إلى غفران زلاته ، ونقاء صفحاته وهو متهيئ للصلاة ولما يدخل فيها بعد ، قال ﷺ : «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره» [رواه مسلم].

ويقول ﷺ : «من توضأ فأسبغ الوضوء ثم مشى إلى صلاة مكتوبة فصلاها مع الإمام غفر له ذنبه» [رواه أحمد] ، فالصلاة سرور المؤمن ، وسلوة الطائع ، وملاذ الخاضع . أقرب إلى المؤمن وأسرع نجدة وإسعافاً وأحنى وأعطف من حِجر الأُمّ الرؤوم الحنون على الطفل الشريد اليتيم ، فهي معقل المسلم وملجؤه الذي يأوي إليه ، ويسكن إليه ، وهي الحبل الممدود بينه وبين ربه . غذاءٌ وبلسم للجروح ، ودواء النفوس ، وإغاثة الملهوف ، وأمان الخائف ، وقوة الضعيف ، وسلاح الأعزل ، وعون المجتهد ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة : ١٥٣] ، ولقد كان المصطفى ﷺ إذا أهمه شيء أو حز به أمر فزع إلى الصلاة .

وكان يقول ﷺ : «يا بلال أقم الصلاة ، أرحنا بها» [رواه أبو داود].

إنها جُنَّةُ المسلم وسلاحه ، وسعادته وفلاحه ، والمفتاح الدائم الذي يفتح به كل قفل ، ويكشف به كل ما غم قلبه وأهمَّه ، وأشغل خاطره . فللخوف صلاة ، وللاستسقاء صلاة ، وللكسوف والخسوف صلاة ،

وللاستخارة صلاة ، وللحاجة صلاة ، وللتأهب للموت صلاة والصلاة ليست حركات رياضية ، ونظاماً رتيباً خشيباً جامداً لا روح فيه ولا حياة! ، إنها عمل مشترك بين الجسم والعقل والقلب ؛ الجسم قيام وركوع وسجود ، والعقل تدبر وتفكر ، والقلب خشوع وخضوع ورقة والتذاذ ، ولا قيمة لصلاة بلا خشوع ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون : ٢].

قال ﷺ : «ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تُؤْتَ كبيرة ، وذلك الدهر كله» [اخرجه مسلم].

ويقول ﷺ : «خمس صلوات افترضهن الله عز وجل ، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن ، وأَتمَّ ركوعهن وخشوعهن كان له على الله عهدٌ أن يغفر له» [أخرجه أبو داود].

ويقول ﷺ : «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ، ثم يقوم فيصلي ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة» .
[رواه مسلم]

فما أعظم الأجر ، وأسعد الحظ لمن أداها على وجهها الأكمل؟!. وقد أخبر ﷺ أن أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع ، حتى لا ترى فيها خاشعاً . [صحيح الترغيب : ٥٤٣]

لقد هيأت الحكمة الإلهية ، والتشريع الرباني الصلاة تهيئة دقيقة

وعميقة ، وهي من المعجزات التشريعية لتحقيق غاية العبودية والإخلاص لله تعالى ، وغاية الخضوع والتذلل والاستغاثة والابتهال ، وإحياء الصلة بالله تعالى وتجديدها ، والانقطاع عما سوى الله . تنشئ في النفس قوة روحية ، وإيماناً عميقاً ، ونوراً يفيض به القلب ويقاوم به أقوى الفتن والمغريات ، وأقسى الحوادث والكوارث . إن أمر الصلاة عجبٌ في كل أركانها وحركاتها وسكناتها وأقوالها وأفعالها ، بَدْءاً بالوضوء ، وما فيه من طهارة ونقاء ، وتجدد ونشاط ، ثم استقبال أول بيت وضع للناس ، ثم الأذان الذي لم تتجل فيه مقاصد الصلاة ومعانيها فحسب ، بل تجلت فيه مقاصد الإسلام ، وشعار التوحيد ، وروح الدين بوضوح وبلاغة وإيجاز ، وجمال وجلال . إن الأذان دعوة مُرَكَّزة للإسلام ، وتعريف بمقاصده وتعليماته .

ثم التكبير الذي تبتدئ به الصلاة ، وما يحمل من معان ، التكبير تلك الكلمة الواضحة البليغة المدوية المجلجلة التي يخشع أمامها الجبابرة ، ويهوي لها كل صنم ، ويضطرب لها كل طاغية وطاغوت .

الصلاة ينادى لها بالتكبير ، وتقام بالتكبير ، وينتقل في حركاتها بالتكبير ، وتختم بالتكبير . والجهاد بالتكبير ، والأعياد شعارها التكبير ومواسم الطاعة شعارها التكبير ، وإذا أعجبك الشيء تكبر، والمسافر يبتدىء دعاء السفر بالتكبير ، وإذا صعد جبلاً كبّر . فالتكبير كلمة عظيمة وموضوع هائل ، ومعنىً جليل ، يجب أن يلازم المسلم ، ويرسخ في وجدانه ، وينزرع في خلجات قلبه .

وإذا عرف المصلي عظمة الله وكبرياءه ، وتغلغلت في أحشائه ، تضاءلت أمامه كل عظمة وكبرياء ، وصغر في عينه كل عظيم إلا الواحد الأحد . ثم أذكار وأدعية الاستفتاح للصلاة وما فيها من جمال وجلال ، أدعية كلها إخلاص وتوحيد ، وتقديس وتمجيد ، واستكانة وإنابة ، وتلهف واستغاثة ، وافتقار وتذلل .

ثم سورة الفاتحة وما فيها من دلائل العظمة وروائع الإعجاز . فهي الموجز للقرآن ، والخلاصة للإسلام، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم.

ثم الركوع والانحناء لجلال الله جل وعلا .

ثم السجود الذي هو روح الصلاة ولبّها ، وفيه تتجلى أقصى درجات العبودية ، يمرغ الإنسان جبهته في الأرض ليعلن عبوديته وفقره وحاجته إلى لطف المولى وعفوه ورحمته ، و« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » [صحيح : ١١٧٥] ، إلى غير ذلك من الأسرار والعجائب ودلائل الخشوع والتواضع التي تحملها الصلاة .

اللهم اجعلنا من المصلين الذين هم على صلاتهم يحافظون ولا تخزنا يوم يبعثون ،،،،

obeikandl.com

السجود

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : ٤٩، ٥٠] .

السجود .. أقصى درجات العبودية ، وأجل مظاهر التذلل ، وأصدق دلائل الإذعان ، وأجمل رسائل الحب ، وأعذب مناظر الخشوع ، وأفضل أثواب الافتقار .

السجود .. انطراح للجبار ، وتذلل للقهار ، وتمريغ للأنف ، وتعفيرٌ للوجه ، وتزلف للمحبوب ، وانطلاق من أسر الدنيا ، وهروب من قيود الطاغوت ، وتجرد من أوسمة العظمة ، وتخلٍّ عن رتب الفخامة ، وألقاب الزعامة ، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ [مريم : ٩٣] يسجد الملك والمملوك ، والغني والفقير ، والسيد والمسود ، والرجل والمرأة ، كلهم سواءٌ في فقرهم إلى الكريم ، وذلهم للعظيم .

السجود .. رسالةٌ معبرة لكل ملوك الأرض ، وكل عظماء الدنيا أن التذلل الحق ، والخشوع الحق ، للملك الحق ، للواحد القهار ، للكبير المتعال ، لمن بيده مقاليد السموات والأرض .

السجود .. بمظهره الخاشع ، ومنظره المخبت يثير في النفس أن

العظمة لله ، والكبرياء لله ، والاستعلاء لله ، والقوة لله ، والجبروت لله ، والملك لله ، والعبودية لله ، فهو انحناء لعظمته ، وافتقار لجوده ، وارتماء على أعتابه ، واعتراف بفضله ، وإقرار بنعمه ، واستسلام لجلاله .

والعبودية غاية كمال الإنسان ، وكمال قربه من الديان ، وعلى قدر عبوديته وصدق توجهه تكون منزلته عند ربه ، والصلاة جامعة لمتفرق العبادة ، متضمنة لأقسامها ، مشتملة على أنواعها ، وهي أفضل أعمال العبد ، وثاني أركان الإسلام ، وهي عمود الدين ، وقرة أعين الموحدين . وأعظم ما في الصلاة السجود ، فهو أفضل أركانها ، وسرّها الذي شرعت له ، وكان تكرره فيها أكثر من تكرر سائر الأركان ، وجعل خاتمة الركعة وغايتها ، والركوع توطئة له ، ومقدمة بين يديه ، فهو سر الصلاة ، وركنها الأعظم ، وكنهها الأجل ، وجوهرها الأسمى ، و« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » [صحيح الجامع : ١١٧٥] ؛ فهو يبذل نفسه لمولاه ، ويذل وجهه لإلهه ، ويلتصق بالتراب طلباً لرضاه، ويعمر القلب بجلاله وجماله ، ويروي عطش الفؤاد بزلال الحب ، ونقي الهوى .

وكان فؤادي خالياً قبل حبكم
وكان بكل الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبي هواك أجابه
فلست أراه عن فنائك يبرح
فلا تحرمُنَّ النفس من فيض جودكم
فلست أرى قلبي لغيرك يصلح

والسجود أصله ومعناه : الانحناء والتذلل ، وجعل بعد ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته ، وهو عامٌ في الإنسان والحيوانات والجمادات ، وهو نوعان :

سجود اختيار ، وليس ذلك إلا للإنسان ، ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم : ٦٢] ، أي تذللوا له سبحانه .

وسجود تسخير ، وهو للإنسان والحيوان والنبات ، وكل ما في الأرض قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد : ١٥] ، فهذا سجود تسخير ، وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة ، وأنه أوجدها خالق حكيم ، وسميع عليم ، فكل شيءٍ في الكون ساجد لله ، ناطق بعظمته ، ماضٍ على حكمه ، مسخر بتسخيره ، ولا يشذ عن الكون كله إلا مردة البشر ، وحمقى الناس ، ممن أظلمت قلوبهم ، وفسدت نفوسهم ، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج : ١٨] .

فالذي حق عليه العذاب هو الذي لا يسجد له سبحانه ، وهو الذي أهانه ترك السجود له ، فمن لم يسجد لله فهو ساجد لغيره لا محالة ، ومن أهانه الله فلا مكرم له ؛ فالسجود ذلّة وإهانة إذا كان لغير الله ، وهو عزة ورفعة إذا كان لله ، وإذا أردت أن ترتفع عند الله فانخفض له ساجداً وإذا أحببت القرب من الله فمرغ أنفك بالتراب وألصق وجهك بالثرى .

قال ﷺ : «عليك بكثرة السجود لله ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك خطيئة» [صحيح الجامع: ٤٠٥٠] .

ويقول ﷺ : «ما من عبد يسجد لله سجدة إلا كتب الله له بها حسنة ، وحطَّ عنه بها سيئة ، ورفع له بها درجة ، فاستكثروا من السجود» [صحيح الجامع : ٥٧٤٢] .

فما أروع السجود ، وما أجلّ منظره ، وأعجب هيئته ، الطريق إلى السماء يبدأ من الأرض ، ومفتاح باب القرب بالسجود على التُرْب .

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

(الله جل وعلا لما خلق العبد من الأرض ، وأوجده من الطين ، وسوّاه من الثرى ، ثم نفخ فيه من روحه ، كان جديراً بأن لا يخرج هذا المخلوق عن أصله ، ولا يتنكر لمعدنه، بل يرجع إليه كلما دعته النفس للخروج عنه ، فإن العبد لو ترك لطبعه ، ودواعي نفسه ، لتكبر وطغى ، وخرج عن أصله الذي خلق منه ، ووثب على حق ربه من الكبرياء والعظمة ، فنازعه إياها ، فأمر بالسجود خضوعاً لعظمة ربه وفاطره ، وخشوعاً له ، وتذللاً بين يديه ، وانكساراً له ، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلل رداً له إلى حكم العبودية ، ويسجد على التراب الذي خلق منه ، وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه وهو الوجه ، وقد صار أعلاه أسفله خضوعاً بين يدي ربه الأعلى وخشوعاً له، وتذللاً لعظمته ، واستكانة لعزّته ، وهذا غاية خشوع الظاهر ، فالله تعالى خلقه من الأرض ، واستعمله فيها ورده إليها ، ووعده بالإخراج منها ، فهي أمه وأبوه ، وأصله وفصله ،

ضمته حيّاً على ظهرها ، وميتاً في بطنها ، وجعلت له طهراً ومسجداً ، فأمر بالسجود إذ هو غاية الخشوع ، وأجمع العبودية لسائر الأعضاء ، فيعفر وجهه في التراب استكانةً وتواضعاً وخضوعاً وإلقاءً باليدين» ، ولهذا كان من كمال السجود الواجب أن يسجد على الأعضاء السبعة : الوجه ، واليدين ، والركبتين ، وأطراف القدمين .

ومن كماله أن يكون على هيئةٍ يأخذ فيها كل عضو من البدن بحصة من الخضوع، فيقلّ بطنه عن فخذيه ، وفخذيه عن ساقيه ، ويجافي عضديه عن جنبيه ، ولا يفرشهما على الأرض ، وذلك ليستقل كل عضو منه بالعبودية) .

وكان ﷺ إذا سجد فرّج يديه عن إبطيه حتى يُرى بياض إبطيه ، وكان يقول : «اعتدلوا في السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب» [صحيح الجامع : ١٠٤٢] .

إن السجود من دلائل الإيمان ، وكمال الإذعان ، وامتثال أمر الديان ، وإغضاب الشيطان .

يقول ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ، يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» [مسلم : ١١٥] .

والسجود لعظمته وجلاله لا يُمحى أثره ، ولا يزول مكانه حتى ولو دخل الإنسان النار ، يقول ﷺ : « .. حتى إذا أراد الله رحمة من

أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله ، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار ، فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود» [البخاري : ٧٦٤] .

وقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين بقوله : ﴿ **سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ** ﴾ [الفتح : ٢٩] .

فيا الله ما أروع منظر السجود لمن يتدبر ، بينا الإنسان منتصباً واقفاً عالي الهامة ، شامخ الأنف ، إذا به يسقط على وجهه ويخر لذقنه ، ويمرغ أنفه .

بينما الإنسان يأمر وينهى ، ويقول ويفعل ، ويصول ويجول ، إذا به منكباً على وجهه ، مفترشاً الثرى ، ناثراً للدموع ، مظهراً للفقر ، معلناً بالذل ، معترفاً بالنقص .

والسجود لعظمته أطلق في القرآن الكريم ، وأُريد به الصلاة ، مثل قوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ [ق : ٤٠] – أي الصلوات – والمساجد هي موضع الصلاة ، وسميت بذلك باعتبار السجود لأنه أفضل ما في الصلاة ، فهو مساجد للساجدين ، وداود عليه السلام لما أذنب فزع إلى السجود ﴿ **فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ** ﴾ [ص : ٢٤] .

وسحرة فرعون لما علموا صدق موسى عليه السلام وكذب فرعون خرّوا لربهم سجداً ، فكانت تلك السجدة أول سعادتهم ، وغفران ما أفنوا فيه

أعمارهم من السحر .

وكان ﷺ إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة ، ويمَّم وجهه لمولاه ، وكان يسجد في ظلمة الليل الحالك ، ويطيل السجود ويبكي حتى تبلّ دموعه الثرى ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم كما وصفهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بين أعينهم مثل ركب المعزى من كثرة السجود .

وكان عمر بن عبد العزيز يكون في شأن الرعية في نهاره ، فإذا أقبل الليل رمى بنفسه في محرابه ، وسجد لخالقه حتى كأنه جثة هامدة .

وكان ابن تيمية – رحمه الله – إذا أشكلت عليه مسألة عمد إلى مسجد قديم مهجور فمرغ وجهه بالتراب وسجد لله باكياً متذللاً ينادي ويهتف يا معلم إبراهيم علمني ، يا مفهم سليمان فهمني .

فالسجود أقرب هيئات المصلي إلى الله تعالى ، وأحبها إليه ، يقول ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثروا من الدعاء » [صحيح الجامع : ١١٧٥] ﴿ **كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾ [العلق : ١٩] .

إذا سجد الإنسان فك سلاسل التقليد من الأعراف والعادات ، فخرّ ساجداً يمرغ جبينه لله تعالى ، وأعطى القلب زمامه ، وأرسل النفس على سجيتها ، فلا حجر على الخشوع ، ولا ملامة على الدموع ، وقد غلى مرجل الصدر ، وفاضت كأس القلب ، واشتعلت حرقات الفؤاد ، إنها السجدة التي يرتعد لها القلب ، وترتعش لها الجبال الراسيات ، وتهتز بها الأرض ، ويرتعد لها الجبابرة والطغاة .

كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة والسجود ، وإذا ضاقت به الأرض نادى : «أرحنا بها يا بلال» ، وإذا مرّ بآية سجدة سجد لله ، وإذا أعجبه الأمر أو بشر بالنصر سجد .

دخل ﷺ مكة فاتحاً منتصراً عزيزاً معززاً كريماً مكرماً ، فلم يته فخراً وكبراً ، ولم يشمخ بأنفه ، ولم يظهر في مظهر التكبر والبهرج والخيلاء ، بل حنى ظهره إجلالاً لله حتى إن ذقنه كان يمس ظهر الدابة من شدة انحنائه وتذلله لربه عز وجل ، فالمؤمن إذا فرح بالأمور وأعجبه الشيء وجاءته النعمة فإن أصدق ما يعبر به عن شكره لمولاه وإجلاله لخالقه ، وتقديره لربه ، أن يخرّ على الأرض ساجداً ، والمؤمنون ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** ﴾ [مريم:٥٨] ، وإذا سها المسلم في صلاته ، وقصَّر في الأداء ، ونقَّص في العبادة ، فإن أصدق ما يعتذر به ، وأحسن ما يكفر به أن يسجد لله سجدتين ، وإن المؤمن إذا أراد أن يحظى بمرافقة المصطفى ، ويفوز بجيرة الحبيب ، فطريقه إلى ذلك كثرة السجود ، وإدامة الانطراح .

يقول ربيعة بن كعب رضي الله عنه : كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال لي : «سلني ؟» ، فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة . قال : «أوْ غير ذلك؟» ، قلت : هو ذاك ، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» [مسلم : ١١٢٥].

قال ﷺ : «وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم» [مسلم : ٧٣٨] .

في الركوع يعظم الرب جل وعلا ويثنى عليه بما هو أهله ، ونعترف أنه العظيم ، وأنه السبوح القدوس رب الملائكة والروح ، وذلك كله أشبه بمقدمة نقدمها بين يدي السجود ، فصاحب هذه الصفات العظيمة هو الذي يستحق أن نخر له سجداً وأن ننطرح بين يديه ، ونمرغ أنوفنا تقرباً إليه ، وفي السجود لم نؤمر بأن نقول سبحان ربي العظيم ، والكريم ، ولا غيرها من الأسماء والصفات ، إنما نقول سبحان ربي الأعلى ، فهو الكبير وهو المتعال وهو العظيم وهو الأعلى الذي يجب أن تنخفض المخلوقات لعزته ، وإلى هذا المعنى تشير الآية أيضاً ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ﴾ [النحل : ٥٠] فهم مؤمنون بعلوه وفوقيته جل وعلا فخضعوا له بالسجود إجلالاً وتعظيماً .

أيها الأحبة .. وإضافة إلى كل ما مرّ من مزايا السجود وجلاله وعظمته وعظيم أجره عند الله تعالى ، فإن له من الفوائد الصحية ما يربو عن الحصر ، فالإنسان الذي يؤدي الفروض والسنن الرواتب فقط فهو يسجد في اليوم اثنتين وسبعين مرة ، ومن فوائده بإيجاز :

١ – تغذية الرأس والدماغ بالدم ، فهو يحسن الدورة الدموية ودورة الدم في الرأس على وجه الخصوص .

٢ – المحافظة على مرونة العمود الفقري ، فالمداومة على السجود تبعد عنه أمراضاً كثيرة وخطيرة منها : التيبس – انكسار الفقرات – عرق النسا – الدسك .

٣ – تنشيط عمل الرئتين ، وزيادة مرونة الصدر .

٤ – تنشيط الجهاز الهضمي .. إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة في السجود خصوصاً وفي الصلاة عموماً حيث يصل عدد حركات أعضاء الجسم في اليوم الواحد إلى ستمائة وخمسة وعشرين حركة .

سبحان من لو سجدنا بالعيون له
على حمى الشوك والمحمى من الإبر
لم نبلغ العشر من معشار نعمته
ولا العُشير ولا عشراً من العشر
هو الرفيع فلا الأبصار تدركه
سبحانه من مليك نافذ القدر
سبحان من هو أنسي إذ خلوت به
في جوف ليلي وفي الظلماء والسحر
أنت الأنيس وأنت الحب يا أملي
من لي سواك ومن أرجوه يا ذُخُري